لنا ، وقال سبحانه : ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [1] .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ⑥﴾

وهكذا بيّن الحق اختلاف الليل عن النهار مما يؤكد أنهما وجدا معاً ، وعطف عليها ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ؛ لأنه سبحانه خلق الكون بما فيه من مقومات حياة من مأكل ومشرب وهواء ، وغير ذلك ، ثم سخَّر الكون كله ؛ لخدمة السيد وهو الإنسان.

ولو نظرتَ إلى مقومات الحياة لوجدت فيها احتياجات أساسية تتمثل في نفس هواء ، وشراب ماء ، وطعام ؛ هذه أهم احتياجات الإنسان من مقومات الحياة . ويصبر الإنسان على المأكل أكثر مما يصبر على المشرب ، ويصبر على المشرب أكثر مما يصبر على نَفَس الهواء ، بل ولا يملك الإنسان الصبر على نَفَس الهواء مقدار شهيق وزفير .

لذلك شاء الحق أن يملك قومٌ طعام غيرهم ؛ لأن الجسم يمكنه أن يصبر على الطعام لمدة قد تصل إلى الشهر ويعتمد في ذلك على إذابة الدهن المتراكم بداخله ، عكس ما اخترع البشر من آلات ، فالسيارة لا يمكن أن تسير لمتر واحد دون وقود . أما الجسم فيتحمل لعل مَنْ يملك الطعام

(١) فصل عن المكان من باب ضرب : جَاوَزَهُ قال تعالى : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف] والفصال : الفطام ، قال تعالى : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] والفصل : التمييز . ويوم الفصل : يوم القيامة . وفصل الخطاب : القول الصائب المميز بين الحق والباطل ، قال تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ] ، وفصل الشيء جعله أقساماً متميزة قال تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾﴾[الإسراء] وقال تعالى : ﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف] . أي : مبينات ومنه قوله تعالى : ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس] - القاموس القويم : ص ٨٢ ، ٨٣ .

يخفف من القيود ، أو لعل الإنسان الجائع يجد طريقه لينال ما يقتات به .

أما الماء فقد شاء الحق أن يقلل من احتكار البشر له ؛ لأن الإنسان أكثر احتياجاً للماء من الطعام .

أما الهواء فسبحانه وتعالى لم يُملّك الهواء لأحد ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسي للحياة ؛ ولذلك اشتق منه لفظ النَّفس ، ونَفْس ، ونَفَس .

ولو نظرتَ إلى الهواء فى الوجود كله لوجدته عامل صيانة لكل الوجود من ثبات الأرض ، إلى ثبات المباني التى عليها ، إلى ثبات الأبراج ، إلى ثبات الجبال ، كل ذلك بفعل الهواء ؛ لأن تياراته التى تحيط بجوانب كل الأشياء هى التى تثبّتها ، وإنْ تخلخل الهواء فى أى ناحية حول تلك المبانى والجبال فهى تنهدم على الفور .

إذن : الهواء هو الذى يحفظ التوازن فى الكون كله . ولذلك قلنا : إنك لو استعرضتَ ألفاظ القرآن لوجدت أن الحق سبحانه حينما يتكلم عن تصريف [1] الرياح ، فهو سبحانه يتكلم بدقَّة خالقٍ ، بدقة إله حكيمٍ ، فهو يرسل من الرياح ما فيه الرحمة ، مثل قوله الحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [2] ... (٢٢) ﴾ [الحجر]

---

(١) وتصريف الرياح تحويلها من جهة إلى جهة ، وتصريف الأمور إدارتها من حال إلى حال . والصرف : رد الشىء من حال إلى حال . وصرف النقود تغييرها أو إنفاقها ، وصرف السجين أخلى سبيله ، وصرف القلوب – تحويلها من الهدى إلى الضلال كقوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧) ﴾ [التوبة] القاموس القويم جـ١ : ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) قال ابن السكيت والأزهرى : لواقح أى : حوامل ؛ لأنها – الرياح – تحمل الماء والسحاب وتقلّبه وتصرّفه ، ثم تستدرّه . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧) ﴾ [الأعراف] . [اللسان : مادة (لقح) . . بتصرف] .

لكن إذا جاء بذكر ريح ففى ذلك العقاب ، مثل قوله:

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة]

ومثل قوله:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا [2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ..﴿٢٥﴾﴾

[الأحقاف]

لأن الرياح تأتى من كل ناحية ، فتوازن الكائنات ، أما الريح فهى تأتى من ناحية واحدة فتدهم [3] ما فى طريقها.

وهنا يقول سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : أنه جاء بالمخلوقات الأخرى مجملة بعد أن جاء بذكر الشمس والقمر كآيتين منفصلتين ، ثم ذكر السموات والأرض وما فيهما من آيات أخرى : من رعد ، وبرق ، وسحاب ، ونجوم وعناصر فى الكون ، كل ذلك مجمل فى قوله : ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ؛ لأنه لو أراد أن يفصِّل لَذَكَرَ كثيراً من الآيات والنعم ، وهو القائل:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

---

(١) ريح صِرٌّ وصَرْصَرٌ : شديدة البرد والصوت. قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران]. وصَرَّ الطائر: صاح، وصَرَّ الباب يصرّ صريراً: أصدر صوتاً عالياً ممتداً، والصَّرَّة: الضَّجَّة والصيحة والشدة من الكرب والحرب وغيرهما. [اللسان : مادة (صرر)].

وعاتية: شديدة جداً. والعاتي: الجبَّار. [اللسان : مادة (عتا)].

(٢) العارض: السَّحابة إذا كانت فى ناحية من السماء، والعارض يكون أبيض اللون. [اللسان : مادة (عرض)].

(٣) تدهم: تهجم بشدة حتى تغشى مَنْ وما فى طريقها. [اللسان : مادة (دهم) بتصرف].

والقرآن ليس كتاباً لبسط المسائل كلها ، بل هو كتاب منهج ، ومن العجيب أنه جاء بـ«إن» وهى التى تفيد الشك فى قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ؛ لأن أحداً مهما أوتى من العلم ليس بقادر أن يُحصى نعمَ الله فى الكون ؛ ولأن الإقبال على العَدّ فرض إمكان الحصر ، ولا يوجد إمكان لذلك الحصر ؛ لذلك لم يأت بـ«إذا» ، بل جاء بـ«إنْ» وهى فى مقام الشك .

والأعجب من هذا أنك تجد أن العَدَّ يقتضى التكرار ، ولم يقل الله سبحانه : وإن تعدوا نعم الله ، بل جاء بـ«نعمة» واحدة ، وإذا استقصيتَ ما فى النعمة لوجدتَ فيها آلاف النعم التى لا تُحصَى .

ويُنهى الحق الآية بقوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ ، والآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الإطلاق الأول آيات القرآن ، والإطلاق الثانى على المعجزة الدالة على صدق الرسول [1] ، والإطلاق الثالث للآية أنها تحمل عجيبة من عجائب الكون الواضحة فى الوجود [2] الدالة على عظمة الله سبحانه .

وهذه الآيات خلقها الله لتَلْفت إلى مُكَوِّن [3] هذه الآيات ، واللفتة إلى مُكوِّن هذه الآيات ضرورة لينشأ الإنسان فى انسجام مع الكون الذى أنشىء

---

(١) والآية بمعنى أنها معجزة من المعجزات الدالة على صدق الرسول قد جاء بها القرآن على لسان المشركين والكافرين فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة] ونحو قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنعام] .

(٢) وهى الآيات الدالة على قدرة الله على الخلق وتدبير الكون وتسييره بنظام لا يختل ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم]

(٣) والالتفات إلى المكون يقتضى مراحل ثلاث : مرحلة الإدراك ، ومرحلة الانفعال ، ومرحلة الاختيار ، فإدراك الآية يجعلك تنفعل بها ، فإذا انفعلت اخترت المكون توحيداً بحب وعبادة بصفاء وانسجاماً بأخلاق ، وهنا تتم النعم بمعية الله .

من أجله ، بحيث لا يأتى له بعد ذلك ما ينغّص هذا الانسجام ، فهبْ أن إنساناً ارتاح فى حياته الدنيا ثم استقبل الآخرة بشقاء وجحيم ، فما الذى استفاده من ذلك ؟

إذن : كل المسائل التى تنتهى إلى زوال لا يمكن أن تُعتبر نعمة دائمة ؛ لأن النعمة تعنى أن تتنعم بها تنعُّماً يعطيك يقيناً أنها لا تفارقك وأنت لا تفارقها ، والدنيا فى أطول أعمارها ؛ إما أن تفوت النعمةُ فيها الإنسان ، وإما أن يفوت هو النعمةَ.

والحق - سبحانه وتعالى - يبقى الذين يريدون أن يتقوا الله ؛ ليصلوا إلى نعيم لا يفوت ولا يُفَات ، ويجب أن ينظروا فى آيات الكون ؛ لأنهم حين ينظرون فى آيات الكون بإمعان يكونون قد أفادوا فائدتين : الفائدة الأولى أن يفيدوا مما خلق الله ، والفائدة الثانية أن يعتبروا بأن هذا الكون الذى خلقه الله إنما جعله وسيلة ومَعْبراً إلى غيره ، فقد خلق فيه الخلق ليعيش بالأسباب، ولكنه يريد أن يُسْلمه بعد ذلك إلى حياة يعيش فيها بالمسبِّب وهو الله . فالذين يتقون هم الذين يلتفتون ، والذين لا يتقون لا يعتبرون بالنظر فى الكون وتمر على الإنسان منهم الأشياء فلا يعتبرون بها ، كما قال الله :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[1] (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إذن : فهم لا يلتفتون إلى ما فى آيات الحق من الآيات الدالة على عظمة قدرة الله سبحانه ؛ فهم غير حريصين على أن يَقُوا أنفسهم عذاب الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك:

---

(١) أعْرَضَ يُعْرِضُ إعراضاً، فهو مُعْرِضٌ، والجمع: مُعْرِضون. أعرض عن الشيء: إذا ولاه ظهره وابتعد عنه. [اللسان: مادة (عرض) .. بتصرف].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

والرجاء هو طلب شيء محبوب متوقع ، والتمنى طلب شيء محبوب إلا أنه غير ممكن الحدوث ، ولكنك تعلن بتمنّيك أنه أمر تحبه ، مثل من قال:

أَلا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً ... فأخبرَهُ بما فَعَلَ المَشيبُ

هو بهذا القول يبين أن الشباب أمر محبوب ومرغوب . لكن هل يتأتى هذا ؟ طبعاً لا . إذن : التمنى هو طلب شيء محبوب لا يمكن أن يقع ؛ ومثل قول الشاعر:

ليتَ الكواكبَ تَدْنُو لى فَأَنْظِمَها ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لكُم كَلِمِى

وهذا غير ممكن .

أما الرجاء فهو أن تطلب شيئاً محبوباً من الممكن أن يقع .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ، فلماذا لا يرجون لقاء الله ؟ لأن الذى يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء ؛ ليستقبل ثواب الله ، لكن الذى لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله ، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله ؛ فكيف له أن يرجو لقاء الله ؟ إنه لا يرجو ذلك[1] .

وعلى سبيل المثال : إن الرجل الذى يستشهد ويقدم نفسه للشهادة ، ونفسه هى أعز شيء عنده ، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله

---

(١) الرجاء : الأمل المتوقع قريباً ، ضد اليأس . رجاه ، من باب نصر - يرجوه رجواً ورجاء : توقعه مع إرادته إياه وسروره به ، أو مع خوفه منه ، ويستعمل الرجاء بمعنى الخوف ، قال تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح] . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .. ۝٧﴾ [يونس] . أى : لا يخافون لقاءنا أو لا يأملون لقاءنا ، فيعملون على تهيئة نفوسهم لهذا اللقاء العظيم بالعمل الصالح ، والرجا : الناحية وجمعه أرجاء . قال تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۝١٧﴾ [الحاقة] .

بالاستشهاد خير مما يتركه من الحياة .

إذن : فالذى يرجو لقاء الله هو الذى يُعدُّ نفسه لهذا اللقاء ؛ بأن يتقى الله فى أوامره ، ويتقى الله فى نواهيه ؛ ولذلك تمر على الإنسان أحداث شَتّى ؛ وهى فى مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات ، وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يغشُّ أحد نفسه ، فإذا ما كان حيّاً فقد يجعله الأمل يكذّب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المغريات .

أما إذا جاءته لحظة الغرغرة [1] فى الموت ، فهو يستعرض كل صفحته . فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهرَّ وجهه ، ولذلك يقال : «فلان كانت خاتمته سيئة ، وفلان كانت خاتمته متهللة» . وهذا كلام صحيح ؛ لأن الروح ساعة أن تُقبض فهى تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإن كان ضاحكاً ومستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير .

والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل فى العافية ، فإذا أتى وقت انتهاء الحياة تُعْرَضُ عليه أعماله عَرْضاً سريعاً ، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره ؛ لأنه يستشرف ما سوف يلقاه من جزاء .

وهذا مثل التلميذ حين يكون مُجداً ومجتهداً ثم يقولون له : هناك من جاء لك بالنتيجة ؛ فيجرى عليه مطمئناً . وإن كان غير مُجدٍّ ؛ لم يجب ، ويخاف من لقاء مَنْ يحمل النتيجة .

كذلك الذين يرجون لقاء الله ؛ عملوا استعداداً لهذا اللقاء وينتظرون

(١) الغرغرة : تردُّد الروح فى الحلْق . [اللسان : مادة (غرر)] . ولحظات الغرغرة ووصول الروح إلى الحلق هى التى ينقطع عندها قبول التوبة ، فعن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبى وابن حبان (٢٤٤٩ - موارد الظمآن) .

الجزاء من الله ، أما من لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا في الآخرة . وقد سمى الله هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن نسمعه ننصرف عنها ، فقال : ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ . ولا يوجد اسم أقل من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هي الحياة العليا [(١)] .

والإنسان قد يبحث في عُمْر الدنيا ويقول : إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوت في هذه الدنيا .

إذن : فالدنيا بالنسبة لك هي مقدار عمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقي إلى أن تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهي تطول لغيرك؟ إن عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار مُكْث الإنسان فيها ، وهو مظنون وغير متيقن ، وقد يموت وهو في بطن أمه أو يموت وهو ابن شهر ، أو ابن سنة ، أو بعد أن يبلغ المائة . فالذي يرضى بغير المتيقن قصير النظر .

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول:

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ [(٢)] الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي

---

(١) عن المستورد بن شداد قال قال رسول الله ﷺ : «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع؟» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٨) وأحمد في مسنده (٤/ ٢٢٩ ، ٢٣٠) والترمذي في سننه (٢٣٢٣) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) ذكر الله تعالى المتاع ، والتمتع ، والاستمتاع ، والتمتيع في مواضع من كتابه الكريم ، ومعانيها وإن اختلفت راجعة إلى أصل واحد . والمتاع : هو كل شيء ينتفع به ويتبلغ به ويتزود ، والفناء يأتي عليه في الدنيا . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٣﴾ ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (متع) . . بتصرف] .

الآخِرَةِ إلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ [التوبة]

وحتى إن قست عُمْر الدنيا من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، فهى إلى فناء ، وما دامت إلى فناء ، فهى متاع قليل ، ومن يطمئن إلى هذا المتاع القليل فهو غافل ؛ لذلك يُنهى الحق الآية : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ عكس ما قال فى الذين يعرفون قيمة العمل للآخرة .

حين يقول الحق : ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس]

والغفلة [1] : هى ذهاب المعنى عن النفس ، فما دام المعنى موجوداً فى النفس ، فاليقظة توجد ، والغفلة تذهب . إذن : الغفلة ذهاب المعنى عن النفس ، واليقظة هى استقرار المعنى فى النفس .

ونحن نعرف أن المعلومات التى يستقبلها الذهن البشرى إنما تلتقطها بؤرة [2] الشعور ، مثلما تلتقط آلة التصوير الفوتوغرافية أية صورة .

وإياك أن تظن أن الإنسان يعرف المعلومة من تكرارها مرتين مثلاً أو أكثر ؛ لأن كل الأذهان تتفق فى أنها تلتقط المعلومة من مرة واحدة ، ويتميز إنسان عن آخر فى قدرته على أن يستقبل المعلومة بذهن مستعد لها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تلتقط إلا معنى واحداً ، ثم يتزحزح المعنى إلى حاشية الشعور ؛ لتأتى المعلومة الثانية ، فإن استقبلت المعلومة وفى بؤرة شعورك معنى آخر ؛ لا تثبت المعلومة ؛ لذلك تكرر القراءة مرة واثنتين وثلاث مرات ، حتى تصادف المعلومة خُلُوَّ بؤرة الشعور .

ومثال هذا : الطالب حين يحاول حفظ قصيدة ، فلو كان ذهنه مستعداً

---

(١) أغفلت الشىء : تركته غَفَلاً وأنت له ذاكر . قال تعالى : ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف] أى : أنهم كانوا فى تركهم الإيمان بالله والنظر فيه والتدبّر له بمنزلة الغافلين ، أو أنهم كانوا عمّا يُراد بهم من الإثابة عليه غافلين . [اللسان : مادة (غفل)] .

(٢) بؤرة الشعور : مراكز الشعور والإحساس والإدراك فى المخ . وبؤرة كل شىء مركزه . [المعجم الوسيط : مادة (بأر) . . بتصرف] .

لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة.

إذن : الذهن كآلة الفوتوغرافيا ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ [1] فِي جَوْفِهِ ... ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب]

فإن كنت تريد أن تستقبل معلومة ما ، فكُن حريصاً على أن تُفرِّغ ذهنك من أى معلومة ؛ لتأتى المعلومة الجديدة ، فتصادف خلاء لبؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها.

والمدرس الناجح هو الذى يلفت أذهان كل التلاميذ لما يقول ، وما دامت الأذهان قد التفتت إليه ؛ فلن تمر كلمة دون أن يستوعبها التلاميذ ، عكس المدرس غير الناجح الذى يؤدى عمله برتابة [2] وركاكة [3] تَصْرِف عنه التلاميذ . ونجد المدرس الناجح ، وهو يُلفت انتباه تلاميذه ويقطع الدرس ؛ليسأل أى واحد منهم عمّا قال؛ فيستمع إليه التلاميذ من بعد ذلك بانتباه ؛ لأن كل واحد منهم يتوقع أن يُسأل عن المعلومة التى قِيلتْ من قبل.

والتلميذ المجتهد هو الذى يقرأ الدرس بعقلية قادرة على مناقشة ما فيه من أساليب ومعلومات ، وهو يستصحب حضور الذهن أثناء القراءة ، أما التلميذ الفاشل فهو يقرأ دون يقظة أو انتباه.

مثال آخر : إن الفلاح الذى ينام على حافة بئر الساقية لا يقع فى بئرها ؛ لأنه ينام وهو مستصحب لفكرة أنه إن تقلَّب على جنبٍ ما فسوف يقع فى

---

(١) ويعبر عن القلب بالعقل المفكر ، ويستعمله القرآن بمعنى العقل كثيراً لقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] . وقال : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف] . أى : عقول ، والقلب يرفض الثنائية فى الفكر ، ومن هنا تتكون بؤرة الشعور فى القائل الموجود والفكر الواحد.

(٢) الرتابة: السير أو النهج على نظام واحد لا يتغير . [اللسان، مادة : رتب].

(٣) الركاكة: الضعف فى اللفظ والأسلوب.

البئر [١]. وكذلك الإخوة حين ينام اثنان منهم على سرير واحد، يقوم كل واحد منهما في الصباح وهو مستصحب أن هناك آخر بجانبه، ولكن إذا نام كل منهما في سرير منفصل، فهو يستيقظ ليجد رأسه في ناحية وساقيه في ناحية أخرى، وتسمى هذه عملية الاستصحاب واليقظة، ويقال: «فلان يقظ»، وكلمة «يقظ» ضد «نائم» [٢]؛ لأن اليقظان يحتفظ بالوعى والانتباه.

إذن: فالغفلة هي ذهاب المعنى من النفس وانطماسه، والذين يمرون بالآيات وهم غافلون عنها لن ينتفعوا بشيء من هذه الآيات، ثم تأتي لهم محصلة غفلتهم في الآخرة.

ويقول الحق سبحانه عنهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

وأنت تقول: «أويت [٣] إلى كذا»، إذا كان هذا هو المكان الذي يعصمك من شيء [٤]، وهنا يقول الحق: ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ فإذا كان ذلك هو المأوى، فلا بد أن ما خارجها بالنسبة لهم أشد عذاباً. وهم يأوون إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: بسبب ما كانوا يعملون من ذنوب وسيئات.

---

(١) وقد ورد نهى رسول الله ﷺ عن النوم على ظهر بيت ليس له حجار (أي: سور يمنع سقوطه من على سطح البيت)، فعن علي بن شيبان قال قال ﷺ: «من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه الذمة» أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٤١) ونحوه عند أحمد في مسنده (٥/ ٧٩، ٢٧١).

(٢) اليقظة: نقيض النوم، وقد تكون ضد الغفلة وعدم الفطنة، ويقال: رجل يَقُظٌ ويقظ إذا كان متيقظاً فيه معرفة وفطنة.

(٣) أويت: عُذْتُ. والمأوى: اسم مكان (مفعل) من أوى يأوى، والمأوى: المنزل، والمكان. أي: أن مكانهم ومنزلهم واستقرارهم يكون في النار؛ لقاء ما فعلوا من الذنوب والآثام وغفلتهم عن الحق وآياته البينات. [اللسان: مادة (أ و ا).. بتصرف].

(٤) ومثال هذا قول ابن نوح عليه السلام عندما عَمَّ الطوفان الأرض: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۝٤٣﴾ [هود].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه عن المقابل، وهم الذين آمنوا، ويعلِّمنا أنه سبحانه: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾.

والهداية - كما قلنا من قبل - معناها الدلالة على الخير، بالمنهج الذى أرسله الحق سبحانه لنا، وبه بيَّن الحق السُّبُلَ أمام المؤمن والكافر، أما الذى يُقبل على الله بإيمان فيعطيه الحق سبحانه وتعالى هداية أخرى؛ بأن يخفف أعباء الطاعة على نفسه، ويزيده سبحانه هدى بالمعروف؛ لذلك قال سبحانه:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ[1] ﴿٤٥﴾﴾

[البقرة]

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب؛ فيهوِّنها الحق سبحانه عليه ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة؛ لتهون عليه مشقتها، ويمده سبحانه أيضاً بالمعونة.

يقول الحق سبحانه:

---

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» (١/ ١٧١): «الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رُزق ذلك فإنه يكون خاشعاً فى الصلاة وفى غير الصلاة، بل فى خلوته، وفى بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة». يشير الشيخ إلى أن القرآن هداية، والرسول بسنته دليلها، والله المعين عليها، والوصول للمعية هو عين القرب من الله.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ [1] ﴾

وما داموا قد آمنوا ؛ فسبحانه يُنزل لهم الأحكام التى تفيدهم فى حياتهم وتنفعهم فى آخرتهم ، أو أن الهداية لا تكون فى الدنيا بل فى الآخرة ، فما داموا قد آمنوا ، فهم قد أخذوا المنهج من الله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة ، يهديهم الحق سبحانه إلى طريق الجنة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ... (١٢) ﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ... (٨) ﴾ [التحريم]

أى : أن نورهم يضىء أمامهم . أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا :

﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ [2] مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا [3] نُورًا ... (١٣) ﴾ [الحديد]

أى : أن هذا ليس وقتَ التماس النور ، فالوقت - لالتماس النور - كان فى الدنيا ؛ باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال .

---

(١) الباء فى ﴿بإيمانهم﴾ تحتمل وجهين :
١- أن تكون سببية ، أى : بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة .
٢- أن تكون للاستعانة ، أى : أن يصبح إيمانهم نوراً يمشون به على الصراط . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٣٨) وابن كثير (٢/ ٤٠٨) .

(٢) نقتبس : نأخذ . قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه] . وقال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) ﴾ [النمل] . والقَبَس : النار . واقتباسها : الأخذ منها . والاقتباس من نور أهل الجنة دليل على شدة هذا النور وقوته . [اللسان : مادة (قبس) . . بتصرف] .

(٣) التمسوا : اطلبوا . والتمس الشىء وتَلَمَّسَه : طلبه . [اللسان : مادة (لمس)] .

إذن : فالحق سبحانه يهدى للمؤمنين نوراً فوق نورهم فى الآخرة.

والآية تحتمل الهداية فى الدنيا ، وتحتمل الهداية فى الآخرة.

ويصف الحق سبحانه حال المؤمنين فى الآخرة فيقول : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⁽٩⁾﴾ [يونس]

وقلنا : إن الجنة على حوافٍّ الأنهار ؛ لأن الخضرة أصلها من الماء . وكلما رأيتَ مجرى للماء لا بد أن تجد خضرة ، والجنات ليست هى البيوت ، بدليل قول الحق سبحانه :

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ[1] ... ⁽٧٢⁾﴾ [التوبة]

ونجد الحق سبحانه يقول مرة :

﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. ⁽١٠٠⁾﴾ [التوبة]

ويقول سبحانه فى مواضع أخرى[2] :

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..⁽٢٥⁾﴾ [البقرة]

والحق سبحانه يعطينا صوراً متعددة عن الماء الذى لا ينقطع، فهى مياه ذاتية الوجود فى الجنة لا تنقطع أبداً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⁽١٠⁾﴾

---

(١) عَدَنَ فلان بالمكان يَعْدِن ويَعْدُن عَدْناً وعُدُناً : أقام . ومركز كل شىء مَعْدِنه ، وجنات عدن : أى : جنات إقامة دائمة بمكان الخُلْد . قال تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ⁽٧٦⁾﴾ [طه].

(٢) ورد قوله تعالى ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ٣٥ مرة فى القرآن ، وقد وردت مرة واحدة ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ .

دعواهم : أى دعاؤهم .

وهل الآخرة دار تكليف؛ حتى يواصلوا عبادة الله ؟ لا، ولكنها عبادة الالتذاذ، وهم كُلَّما رأوا شيئاً يقولون: لقد أكلنا ذلك من قبل ، ولكنهم يعرفون حين يأكلون ثمار الجنة أن ما فى الأرض كان يشبه تلك الثمار، لكنه ليس مثلها .

﴿قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ... (٢٥)﴾ [البقرة]

أو يقولون : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ اعترافاً بالنعمة ، وأنت حين ترى شيئاً يعجبك تقول : سبحانك يارب . وبعد أن تأتى لك النعمة وتقول : سبحان الله ، وتُفاجأ بأشياء لم تكن فى الحسبان - من فرط جمالها ؛ فتقول : الحمد لله(١) .

إذن: فأنت تستقبل النعمة « بسبحان الله » ، وتنتهى من النعمة «بالحمد لله ». ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والذى يجعل للحياة الدنيا معنى، ويجعل لها طعماً ويجعل لها استقراراً ، أن يكون الإنسان فى سلام ، ومعنى السلام : الاطمئنان والرضا ؛ فلا مُهيِّجات ، ولا مُعكِّرات ، ولا يأتى ذلك إلا بعدم اصطدام فى ملكات النفس ؛ فيتحقق سلام الإنسان مع نفسه ، وسلام الإنسان مع أهله ، وهذا هو المحيط الثانى ، وسلام الإنسان مع قومه ، وسلام الإنسان مع العالم كله ، كل ذلك اسمه سلام ، أى: لا مُنغِّص ، لا من نفسه ، ولا من أهله ، ولا من قومه ، ولا من العالم . وكلما اتسعت رقعة السلام زاد إحساس الإنسان بالاطمئنان .

---

(١) إن استقبال النعمة بـ (سبحان الله) كلمة إعجاب لجمال يقودك إلى التنزيه والتوحيد والتفريد فتنطق بالتوحيد جمالاً وجلالاً وتنزيهاً ، وعند تمام النعمة يكون النطق تلقائياً ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس] فأول الشيء إعجاب بتنزيه وآخره حمد بيقين .

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ، فالسلام وارد فى أشياء متعددة ، والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ [1] (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ [2] مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وهذا هو السلام الذى له معنى ؛ فهو سلام من الله . ولم يقل سبحانه: «سلام يورثك اطمئناناً ونفساً راضية» فقط ، بل هو سلام بالقول من الله ، وانظر أى سعادة حين يخاطبك الحق سبحانه وتعالى مباشرة. وهناك فرق بين أن يشيع الله فيك السلام وبين أن يحييك كلامه بالسلام. وهذا هو السبب فى قوله:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وهذا سلام الله ، ثم من بعد هذه المنزلة يأتى سلام الملائكة:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم ...(٢٤)﴾ [الرعد]

إذن : فقول الحق هنا : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ نجد فيه كلمة السلام رمز الرضا والاستقرار فى الجنة ؛ فالسلام هو أول الأحاسيس التى تحبها فى نفسك ، ولو كانت الناس كلها ضدك. لكنك ساعة تستقر ، فأنت تسائل نفسك : ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدى ؟ وحين تجيب نفسك : «إننى لم

---

(١) فاكهون: ناعمون معجبون بما هم فيه من نعيم الجنة. قال تعالى: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ (١٨)﴾ [الطور].

(٢) الأرائك: السُّرُر أو الفُرُش. والأريكة: السرير فى الحَجَلة من دونه ستر ، أو هى كل ما اتُّكِىء عليه من سرير أو فراش أو منَصة. قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾ [الكهف]. [اللسان: مادة (أرك). . بتصرف].

أفعل إلا الخير» ؛ فأنت تحس السلام فى نفسك. وإذا ما رحَّب الآخرون بما تفعل ، فالحياة تسير ، بلا ضدّ ولا حقد ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ:

«يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»[1] فيدخل رجل عرفه القوم فلما انصرف ؛ قام واحد من الصحابة[2] ، وذهب إلى الرجل ؛ ليعلم ماذا يصنع ، وسأله : ماذا تفعل حتى يبشّرك الرسول ﷺ بالجنة ؟ فوجد سلوك الرجل مستقيماً ومتبعاً للمنهج دون زيادة ، فسأله الصحابى : لماذا - إذن - بشّرك رسول الله ﷺ بالجنة ؟

قال الرجل : والله إنى لأصلّى كما تصلّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكّى كما تزكون ، ولكنى أبيت وما فى قلبى غلٌّ لأحد.

هذا هو السلام النفسى ، وإذا ما وصل الإنسان إلى السلام مع النفس ؛ فلا تضيره الدنيا إن قامت ، و بعد ذلك يضمن أن يوجد سلامه مع

---

(١) وتمام هذا الحديث أن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة . فطلع رجل من الأنصار تَنْطفُ لحيته تقطر من وضوئه قد تعلق نعليه فى يده الشمال . فلما كان الغد قال النبى ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبى ﷺ مثال مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إنى لاحيت (خاصمت) أبى ، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت . قال : نعم . قال أنس : وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار «استيقظ» وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله . قلت : يا عبد الله إنى لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر ثمَّ ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلعت أنت الثلاث مرار ، فأردت أن آوى إليك لأنظر ، ما عملك فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال : ما هو إلا ما رأيت؟ قال : فلما وليت دعانى . فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . فقال عبد الله : هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٦٩٤) .

(٢) هو : عبد الله بن عمرو بن العاص ، صحابى من أهل مكة ، كان يكتب فى الجاهلية ، ويحسن اللغة السريانية ، وأسلم قبل أبيه ، ولد ٧ ق هـ وتوفى ٦٥ هـ . كان كثير العبادة ، وقتال الأعداء وكان مشهوراً أنه يضرب بسيفين . (الأعلام للزركلى ٤/ ١١١) .

الله تعالى . ومن عنده سلام مع نفسه ، ومع بيئته ، ومع مجتمعه ؛ فهو ينال سلاماً من الله سبحانه . ويقول لنا القرآن عن الذين يعانون من مأزق في الآخرة :

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ (١) فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ [هود]

هؤلاء هم الذين شقوا في النار ، أما الذين سُعدوا ففي الجنة ، فماذا عن حال الذين لا هم شقوا ولا هم سعدوا - وهم أهل الأعراف ؛ لأن الموقف يوم القيامة ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ؛ فقد قال الله سبحانه :

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٢) (٩)﴾ [القارعة]

ولم يقل الحق سبحانه لنا أمر الذين تساوت الكفتان لهم أثناء الحساب ؛ لأنه سبحانه قال في حديث قدسي :

«إن رحمتي غلبت غضبي» (٣) .

ويبين لنا الحق سبحانه رحمته فيقول :

---

(١) قوله تعالى هنا ﴿بِإِذْنِهِ﴾ مُقيِّد لقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا .. (١١١)﴾ [النحل] ، فليس لنفس أن تتكلم أو تجادل عن نفسها إلا بإذن الله ، ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات] ، لأن في يوم القيامة مواقف ، ففي بعضها لا يؤذن لهم في الكلام ، فيكفون عنه ، وفي بعضها يؤذن لهم فيه ، فيتكلمون . قاله أبو يحيى الأنصاري في كتابه (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) ثقلت موازينه : رجحت حسناته على سيئاته .
في عيشة راضية : في الجنة . فإذا كانت العيشة راضية فالمعايش لها مرضى عنه .
خفت موازينه : رجحت سيئاته على حسناته .
﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ : ساقط بأم رأسه في نار جهنم ، وعبَّر عنه بأمه يعني : دماغه .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ومسلم في صحيحه (٢٧٥١) وتمامه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي» وفي بعض روايات الحديث : تغلب ، سبقت .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف]

ويأتى أمر رجال الأعراف فيقول سبحانه:

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ [١] رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ [٢] .. (٤٦) ﴾ [الأعراف]

لقد عرفوا المؤمنين بسيماهم، وعرفوا الكفار بسيماهم، وجلس البعض على الأعراف؛ ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قائلين:

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة ثانية فيقول:

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف]

أهل الأعراف - إذن - يسعدون بعطاء الله لأهل الجنة، ويطمعون أن يغفر الله - سبحانه وتعالى - لهم.

ونحن فى حياتنا نسمع المشرفين على المساجين أو المحكوم عليهم بالإعدام يقولون: قبل أن يحكم على المجرم بالإعدام ينخفض وزنه، ثم

---

(١) الأعراف فى اللغة: جمع عرف، وهو كل عال مرتفع؛ قال الزجّاج: الأعراف أعالى السور.
والأعراف: أعالى سور بين أهل الجنة وأهل النار. وقيل عن أصحاب الأعراف: هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يستحقوا الجنة بالحسنات، ولا النار بالسيئات، فكانوا على الحجاب الذى بين الجنة والنار. [اللسان: مادة (عرف) .. بتصرف].

(٢) السِّيماء: العلامة يعرف بها الخير والشر. ومنه قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ (٢٩) ﴾ [الفتح]، وقوله: ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا (٢٧٣) ﴾ [البقرة] هذا فى أهل الخير والفضل، أما الأشرار فقال تعالى عنهم: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن].

يزيد بعد الحكم ؛ لأن الأمر قد استقر. والذين يُشغلون بأن يعرفوا مكانهم في الآخرة ، أهو في الجنة أو في النار ، لا ينسون أن يقولوا للمؤمنين:

﴿أن سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأعراف]

وهنا يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة : ﴿وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ وقد تكون آخر دعواهم ، أي: آخر كلمة.

فالواحد منهم يقول : أنا حمدت ربنا على الشيء الفلاني والشيء الفلاني . وآخر حَمْد هو قمة الحمد ؛ لأنهم حمدوا الله على النعمة في الدنيا التي تزول ، ويحمدونه في الآخرة على النعمة التي لا تزول ، فلئنْ يوجد حَمْد على النعمة التي لا تزول فهو قمة الحمد[1].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ[2] الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[3] (١١)﴾

وهذه الآية تتناول قضية عقدية قد تكون شُغُل الناس الشاغل في الدعاء

---

(١) الحمد على الإيجاد ، والحمد على الإمداد في الدنيا ، والحمد على نعمة البقاء في دار الخلود وهي قمة الحمد .

(٢) نذر : نترك . قال تعالى : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح] . [اللسان : مادة (وذر) . . بتصرف] .

طغيانهم : مجاوزتهم الحدّ في الظلم والكفر والعصيان . قال تعالى : ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة] .

(٣) يعمهون : العَمَهُ : التحيُّر والتردد في الضلال ، والعَمَهُ يكون في الرأي ، والعَمَى يكون في البصر . قال ابن الأثير : العَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)﴾ [النمل] .

لله تعالى، وقد لا يُجاب دعاؤهم مع كثرة الدعاء، ويُحزنهم على أنفسهم، ويقول الواحد منهم : لماذا لا يقبل الله دعائى ؟ أو يقع بعضهم فى اليأس.

ونقول لكل إنسان من هذا الفريق : لا ، أنت تدعو ، مرة تدعو بالشر ومرة تدعو بالخير ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قد أجابك فى جميع الدعاء ، فسوف يجيب دعاءك فى الشر ودعاءك فى الخير ، ولو أن الله سبحانه وتعالى عجَّل لك دعاء الشر ، كما تحب أن يُعجِّل لك دعاء الخير ؛ لَقُضِى إليك أجلك وانتهت المسألة ، وهناك من قالوا [1] :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء ، لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء.

إذن : فمن مصلحتك حين تدعو على نفسك [2] أو تدعو بأى وبال ألا يجيبك الله تعالى ، وافهم أن لله تعالى حكمة فى الإجابة ؛ لأنه سبحانه

---

(١) هم بعض كفار قريش، قيل: إنه أبو جهل، وقيل: هو النضر بن الحارث بن كلدة. ودعاؤهم هذا دليل سفه وجهل وشدة عناد وتكذيب. وكان الأَوْلى بهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه. وهؤلاء قال عنهم رب العزة: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] ، وجعل الله تأخير العذاب عنهم فضيلة من فضائل رسول الله ﷺ على قومه فقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال] .

(٢) ثبت فى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال، فعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له: شأ لعنك الله . فقال رسول الله ﷺ : من هذا اللاعن بعيره؟ قال: أنا يا رسول الله . قال: «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩) .

وتعالى مُنزَّه عن أن يكون موظفاً عند الخلق ، ومَن يدعُهُ بشيء يجبه عليه ، بل لا بد من مشيئته سبحانه فى تقرير لون الإجابة ؛ لأنه لو كان الأمر عكس ذلك لانتقلت الألوهية للعبد.

لقد صان الحق سبحانه عباده بوضع رقابة على الدعاء ؛ وأنت تعتقد أن دعاءك بخير ، ولكن رقابة الحق سبحانه التى تعلم كل شىء أزلاً [1] تكاد أن تقول لك : لا ، ليس خيراً. وانتظر الخير بعدم استجابة دعائك ؛ لأنه القائل سبحانه:

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فمعرفتك ليست نهائية فى تقرير الخير والشر ؛ لذلك دَعِ الإله الأعلى - وهو المأمون عليك - أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه وأنت فى ظنك أنه الخير ، فالمعرفة العليا هى التى تفرق بين الخير والشر ، وفى المنع - أحياناً - عين العطاء [2] ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء]

وقد تلحّ فى دعاء لو استجيب لك ؛ لكان شراً. والله سبحانه يعلم ما هو الخير لك ، وهو سبحانه يجيب أحياناً بعض خلقه فى أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيراً. وأحياناً يأتى لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير. وهكذا يصحّح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية.

---

(١) الأزَل: القدم: قال أبو منصور: ومنه قولهم: هذا شىء أزلىٌّ أى : قديم.

(٢) عن أبى سَعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مأثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يستجيب له دعوته، أو يصرف عنه من السوء مثلها، أو يدخر له من الأجر مثلها. قالوا: يا رسول الله .. إذن : نكثر. قال: الله أكثر. أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/ ٤٩٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» وأقره الذهبى فى التلخيص. ومن أقوال الشيخ : المنع عين العطاء وقد يكون العطاء نقمة.

وقد قال الكافرون[1] لرسول الله ﷺ:

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

ومن قالوا هذا القول هم: العاص بن وائل السهمى، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يهود، وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب؛ فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر، ولم ينتبهوا إلى غباء ما يقولون؛ لأنه إن كان لرسول الله ﷺ قدرة السحر؛ فلماذا لم يسحرهم هم ليؤمنوا أيضاً؟

واضطربوا مرة ثانية، وحاولوا أن يقولوا: إن القرآن شعر، أو له طبيعة الشعر والكلام المسجوع، والقرآن ليس كذلك. ولو أن جماعة غيرهم قالت مثل هذا القول لكان لهم عذرهم لأنهم ليسوا أهل لغة، أما هؤلاء فهم قوم أهل دُرْبة على الفصاحة والبلاغة، وكانوا يعقدون أسواق الشعر والخطابة، ثم اضطربوا مرة ثالثة، وحاولوا الطعن فى مكانة محمد ﷺ وهم يُقِرّون بعظمة القرآن؛ فقالوا:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

---

(١) عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال] فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٤٨) وكذا مسلم (٢٧٩٦). وقال ابن حجر العسقلانى فى «فتح البارى بشرح صحيح البخارى» (٨/ ٣٠٩): «قوله «قال أبو جهل» ظاهر فى أنه القائل ذلك، وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به ورضى الباقون فنسب إليهم، ولكن نسبته إلى أبى جهل أولى».

(٢) القريتان المقصودتان هنا: مكة والطائف. وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود. فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧): «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان».

والحق سبحانه وتعالى حينما يتعرض لحادثة وقعت فى زمن النبى ﷺ مع الكافرين ؛ لا يقتصر فى الحدث على ما وقع، ولكنه يعالج قضية عامة كونية إلى أن تقوم الساعة، ويجعل الحدث الحاصل فى زمنه سبباً فقط ؛ ليعطى عموم الحكم فى كل زمان وفى كل مكان. وإلا اقتصر الأمر على معالجة حدث وقع لشخص الحدث وشخص الحكم فى القوم الموجودين مع رسول الله ﷺ. وقد جاء القرآن للناس كافة، وجاء للزمان عامة، فلا بد أن تكون القضية المعروضة - أىّ قضية - أمام رسول الله ﷺ من قوم عاصروه لها سبب خاص، ولكن العبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب.

ويعالج الله سبحانه وتعالى فى هذه المسألة الشخصية من هؤلاء الذين قالوا ذلك قضيةً كونيةً ستظل إلى أن تقوم الساعة.

فقد دَعَوْا على أنفسهم:

﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

كما قال قوم عاد لهود:

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

إذن : هم قد دعوا بشرٍّ على أنفسهم.

ويعالج الله قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشرّ ؛ لأن الإنسان قد يضيق ذَرْعاً [1] بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ؛ فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به فى

---

(١) الذَّرْعُ : الطاقة والقُدرة. وضِقْتُ بالأمر ذرعاً مثل ضقت به ذراعاً ؛ فأصل الذرع إنما هو بسط اليد، فكأنك تريد: مددت يدى إليه فلم أنَلْهُ. وضاق بالشىء ذَرْعاً وذراعاً أى: ضَعُفَت طاقته، ولم يجد مَخْلصاً، ولم يُطقْه، ولم يَقْو عليه. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (٧٧) ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) ﴾ [الحاقة]. [اللسان : مادة (ذرع) . . بتصرف].

ذاته من ألم كمرض - مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحمّلها ؛ فيقول : «يارب ، أرحني يارب» ، وهو هنا يدعو على نفسه بالموت . فلو أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه لَقُضيت المسألة .

ولكن الله هو الحكيم العزيز ، لا يأتمر بأمر أحد من خلقه ، ولا يعجل بعَجَلة العباد ، وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير منك ، فهو يؤجل أيضاً إجابتك لدعوة الشرّ منك على نفسك ؛ وفى ذلك رحمة منه سبحانه .

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطينى ، فخذ مقابلها : أنك تدعو بالشرّ على نفسك ، ولا يجيبك الله . ثم ألا يضيق الأب أحياناً ذَرْعا بمن حوله ، فيقول : فليأخذنى الله ؛ لأستريح من وجوهكم ؟ هَبْ أن الله سبحانه أجابه إلى هذه الدعوة ، فماذا يكون الموقف ؟ وقد تجد من يقول : يارب أصبنى بالعمى فلا أراهم ، أو تدعو المرأة على نفسها أو على أولادها .

وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم ، فلو كان يجيبكم على دعاء الشرّ لانتهت حياتكم إلى الفزع ، مثل هذه الأم التى تدعو بالمتناقضات فتقول لولدها - مثلاً : «ربنا يسقينى نارك» فتطلب السُّقيا بالنار ، رغم أن السُّقيا للرِّى ، والنار للحرارة .

إذن : قد يضيق الإنسان ذرعاً بنفسه ، أو يضيق ذرعاً بمن حوله ؛ فيدعو على نفسه بالشرّ ، وحين يدعو الإنسان فيجب عليه أن ينزّه الحق سبحانه وتعالى عن أن ينفذ ما يدعو العبد به دون أن يمر الدعاء على حكمته سبحانه وتعالى .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم (١) بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ ، فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى لكم دعاء الشر على أنفسكم ؛ فاقبلوا منه تأجيل دعائكم بالخير ؛ لأن الخير فيما تطلبون غير الخير فيما يعلم الله ؛ فهو العليم الخبير . وقد تطلب خيراً تعلمه ولكن الله يعلم فيه شراً ؛ فمن مصلحتك ألا يجيبك . وكما تحترم عدم إجابته لك فى الشر على نفسك ، أو على من تحب ، فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك ، أو لمن تحب ؛ لأن الله لا يعجل بعجلة عباده ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلقهم ، وهو أعلم بهم ، فهو القائل:

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ (٢) ... (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا:

---

(١) عَجِل يعجل - عَجَلاً وعَجَلَةً : أسرع . قال تعالى : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) ﴾ [طه] وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة . وعجل الأمر : سبقه ، قال تعالى : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ (١٥٠) ﴾ [الأعراف] وأعجله : حمله على العجل . أى : استحثه أو سبقه . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) ﴾ [طه] وعجل الأمر : قدمه سريعاً ، قال تعالى : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ (١٨) ﴾ [الإسراء] واستعجل الأمر طلبه عاجلاً قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. (١١) ﴾ [يونس] . . القاموس القويم جـ٢ صـ٩٢٨

(٢) العَجَل والعَجَلَة : السرعة . قال الفرَّاء : خُلِق الإنسان من عَجَل وعلى عَجَل ، كأنك قلت رُكِّبَ على العَجَلَة ، بِنْيَتُهُ العجلة ، وخلْقته العجلة ، وعلى العجلة ونحو ذلك . قال أبو إسحق : خوطب العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذى يكثر الشىء : خُلِقت منه . وقيل : إن آدم عليه السلام ، لما بلغ منه الروح الرُّكبتين هَمَّ بالنهوض قبل أن تبلغ القدمين فقال الله عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ (٣٧) ﴾ [الأنبياء] فأورثنا آدم عليه السلام العجلة . وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ (١) ﴾ [النحل] .

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ..(٣٢) ﴾
[الأنفال]

لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به ، وقُضى عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم.

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ؛ ليؤمن من يختار الإيمان ، أما من اختار الكفر ؛ فعليه أن يتحمّل تبعة[1] الطغيان التى تتمثل فى أن الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحد ، ويطلب ممن آمن أن يرتد عن إيمانه ، وفى ذلك مجاوزة للحد ؛ ولذلك فهم يعمهون فى هذا الطغيان ، أى : تتكاثر عليهم الظروف ، ويثبت - لهم ولمن بعدهم - عجز الكفر عن مواجهة قدرة الحق.

وفى الحياة أمثلة - ولله المثل الأعلى - فهناك من يملك عدوه ، فيضربه ؛ لكنه لا يقتله ، ثم يتكرر من هذا الخصم الإساءة ، فيضربه من جديد ، ثم تتكرر الإساءة فيضربه ، وهو لا يقتله أبداً ليداوم على إذلاله ، والقوىّ لا يقتل خصمه ، بل يؤلمه ؛ فلا يرفع الخصم رأسه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يترك أهل الباطل ؛ لتتجمع عليهم سيئاتهم ، ويذوقون ويل[2] خصومة الإسلام فلا يرفعون رءوسهم ؛ لأن أهل الإسلام يردّون لهم الإساءة مضاعفة ، ولسوف ييأس أهل الباطل من أنهم

(١) تَبِعَة الأمر : عاقبته ، وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط : مادة (تبع)].

(٢) ويل : كلمة عذاب تعنى حلول الشر . والويل : واد فى جهنم ، وقيل : هو باب من أبوابها . قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ﴾ [المطففين] وقال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾ [المرسلات] .

سينتصرون على الحق بأى شكل وبأى لون. وهم مهما تحايلوا فى أساليب النكاية [1] فى الإسلام ، تجد الحق سبحانه وتعالى ينصر المسلمين.

والمثل أمامنا من سيرته حين أمره الحق سبحانه بأن يهاجر ، وكان الكفار يحاصرون بيته بشباب من القبائل ، فخرج ﷺ ولم يشعروا ، وقال ﷺ : «شاهت [2] الوجوه» .

وشاء سبحانه ذلك ؛ ليعلموا أنهم لن يستطيعوا الانتصار على محمد ﷺ ، لا بالمواجهة ، ولا بتبييت المكر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ



يصور الحق سبحانه حال البشر ؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالإله ، وبمنهج الإله ؛ هؤلاء الذين يتجهون إلى الله فى لحظات الأزمات ، ثم ينسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك. وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر.

وفى قريتنا - على سبيل المثال - كان الذى يشرف على رعاية صحة

---

(١) نكى العَدُوَّ نكايةً : أوقع به وهزمه وغلبه . والمراد بالنكاية هنا: أساليب أعداء الله فى محاربة الإسلام والتآمر عليه وعلى المسلمين، وهى أساليب مآلها الفشل بإذن الله . قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] . [اللسان، والمعجم الوسيط : مادة (نكى). . بتصرف].

(٢) شاهت الوجوه تَشُوهُ شَوْهاً : قَبُحَتْ . وفى حديث النبى ﷺ : أنه رمى المشركين يوم حنين بكفٍّ من حصى وقال: شاهت الوجوه. وفيه: قال لابن صيّاد: شاه الوجه. ويُقال للخطبة التى لا يُصلّى فيها على النبى ﷺ : شوهاء أى: قبيحة. [اللسان : مادة (شوه)].

الناس حلاّق الصحة ، إلى أن تخرَّج أحد أبناء القرية فى كلية الطب ، فأخذ حلاق الصحة يشيع عنه ما لا يليق. وفى أحد الأيام لاحظ الفلاحون خروج حلاق الصحة مبكراً وهو يحمل لفَافة كبيرة ، فأرادوا أن يعرفوا ما بها ، واكتشفوا أن ابن حلاق الصحة مَريض وهو يريد أن يذهب به إلى الطبيب ، هو - إذن - لا يخدع نفسه ، رغم محاولته خداع أهل القرية بالشائعات الكاذبة عن الطبيب.

وكذلك الإنسان مع منهج الله ، قد يخدع الآخرين فى لحظة اليسر ، لكنه لا ينسى الله لحظة العسر. وساعة يأتيه الضر ، وحين تعزُّ الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة «يارب». وأنت تجدها من أعتى الفُجَّار [1]، ومن أقسى العُتاة ، تجد الواحد من هؤلاء وهو يدعو الله ساعة الضرّ.

وهذا ما يقوله الحق سبحانه هنا : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾.

والمثل من حياة هؤلاء الكافرين الذين دعوا على أنفسهم ، ولو كانوا يرغبون فى إنهاء الحياة ، فلماذا يدعون الله وهم قد كفروا به ؟ إنه كذب مفضوح ، والإنسان حين يضيق بنفسه قد يدعو على نفسه بالضُّر ؛ مثلما قال المتنبى [2]:

كَفَى بِكَ داءً أن تَرَى الموتَ شَافياً   وحَسْب المنايا [3] أن يَكُنَّ أَمَانِيَا

أى : يكفى أن يصل الإنسان إلى الدرجة التى يتمنى فيها الموت.

---

(١) الفجّار : جمع فاجر وهو المكثر من المعاصى والسيئات. والفجور أصله الميل عن الحق. قال ابن شميل : الفجور : الركوب إلى ما لا يحلّ. قال تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾ [القيامة]. وقال : ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار]. [اللسان : مادة (فجر). بتصرف].

(٢) المتنبى شاعر من شعراء الدولة العباسية له باعه فى الشعر

(٣) المنايا : جمع مَنيَّة وهى الموت. والمَنى : القَدَر ، ومَنَى الله لك شيئاً أى : قدَّره لك. ومَنَى الله عليك خيراً يَمْنِي مَنْياً ، وبه سُمِّيت المنيَّة وهى الموت ؛ لأنها مقدَّرة بوقت مخصوص. [اللسان : مادة (منى)].

ونلحظ أن الحق سبحانه قد جاء بموقف الإنسان من الضر فى أكثر من موضع ، فنجد آية تفرد الإنسان بمعنى ؛ وآية ثانية تفرده بمعنى آخر ، وآية ثالثة تصور وضع الإنسان بشكل آخر.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا (١) إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ (٢) نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ... (٨) ﴾ [الزمر]

ويقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا ﴾

ويقول سبحانه فى موضع آخر:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٣) (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [النحل]

إذن : فالحق سبحانه يأتى بها مفردةً مرّة ، ومرة يأتى بها جمعاً. ومرة يأتى بها مفردة على ألوان شتّى ، ومرة يأتى بها جمعاً بألوان شتّى ، ومرة يذكرها فى البر ، ومرة يذكرها فى البحر:

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ... (٦٧) ﴾[الإسراء]

إذن : فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة ؛ إذا ما أصابه ضرّ ،

(١) منيباً : راجعاً إلى الله بالتوبة . أناب إلى الله إنابة فهو منيب : أقبل إليه تائباً ورجع إلى الطاعة . قال تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (٥٤) ﴾ [الزمر] ، وقال : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [غافر] .

(٢) خوّله الله نعمة : ملّكه إياها . وهى مأخوذة من التخويل وهو التمليك . والمراد : إذا كشف الله عنه الضر ، ووهبه النعم نسى فضل الله عليه ووقع فى المعاصى . [لسان العرب - بتصرف] .

(٣) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالتضرع والدعاء إلى الله . [اللسان مادة : ج أ ر] .

ولم يجد مَفْزعاً له لا من ذاته ولا من البيئة المحيطة به ، فلا يجد من يلجأ إليه إلا ربه . ومن الأسف أن هذا الإنسان يكون كافراً بالله .

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تعطينا صوراً متعددة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ أى : وهو مضطجع ، ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ . وهكذا تتناول الآية الإنسان فى تصرفاته فى الكون . والآية متمشية مع أطوار تكوين الإنسان ؛ فالطفل الصغير لا يستطيع أن يتقلّب ، بل يقلّبه أهله ؛ لينام على جنبه ، وحين يكبر قليلاً فهو يتقلب بمفرده ثم تأتى حركة القوة الثانية ؛ فيقعد الطفل ، ثم يقف دون أن يمشى ، ثم يمشى من بعد ذلك .

والآية هنا تعطينا التصوير الدقيق لثلاث حالات : ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ ، ولم تأت حركة المشى ؛ لأن المتحرك للمشى لا يقعده الضر ، لكن من يمر بالمراحل الأخرى قائماً أو قاعداً أو راقداً على الجنب ، فقد يناله الضر .

وتلك هى مراحل النقض لمظاهر الحياة ، فالإنسان يعيش الطفولة ، ثم فُتوَّة الشباب ، ثم يأتيه الضعف والشيب ، فلا يستطيع أن يمشى بقوة الشاب ، وإن كان يستطيع الوقوف ، ثم تدخل عليه الشيخوخة ؛ فيقعد ، ولا يستطيع أن يقف ، ثم تتقدم به الشيخوخة ؛ فلا يمشى ، ولا يقف ، ولا يقعد ، ويظل راقداً على جنبه ، وقد يقلّبه أهله [1] .

إذن : نقض كل شىء إنما يأتى على عكس بنائه ؛ فكما بنيت مراحل الإنسان هكذا جنباً ، فقعوداً فقياماً ، فسعياً وحركة ، فهى تنتهى بالعكس ؛ لأن النقض دائماً على عكس البناء .

---

(١) وهو القائل سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم] .

ومن هذا خرجنا بالاستدلال على صدق الله فى إخباره لخلقه بكيفية الخلق ؛ لأننا لم نشاهد عملية الخلق ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ [1] عَضُدًا [2] (٥١) ﴾ [الكهف]

ولأن الحق لم يُشْهِدْ أحداً على كيفية خَلْق السماء والأرض وخلق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ثم انخفضت درجة حرارتها ؛ فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها ، والحق سبحانه قد قال:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ... (٥١) ﴾ [الكهف]

وهذا القول يدل على أن العقل البشرى لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء. فإن حُدِّثْتُمْ كيف خُلقتم بصورة تختلف عما جاء فى القرآن فقولوا : كذبتم ، وإن حُدِّثتم كيف خُلقت السموات والأرض بغير ما جاء فى كتاب الله ؛ فقولوا : كذبتم ؛ لأن الله هو الذى خلق السموات والأرض والإنسان وحده ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به. ويقول الحق سبحانه:

---

(١) ضَلَّ يَضِلُّ فهو ضالٌّ، وأضلَّ يُضِلُّ فهو مُضِلٌّ، والمُضِلُّ يكون ضالاً ولا يكتفى بضلال نفسه بل يُضِلُّ غيره أيضاً. وأضلَّه : جعله ضالاً، والضَّلال: ضد الهدى والرشاد. قال تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان] . وقال : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ (٨٥) ﴾ [طه] وقال: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) ﴾ [آل عمران] .

(٢) والعَضُد من الإنسان وغيره: الساعد وهو ما بين المرفق إلى الكَتِف. والمراد بالعَضُد هنا : العون والمساعدة. قال تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. (٣٥) ﴾ [القصص] .

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

والمضلون : هم الذين يقولون لكم افتراضات غير صحيحة عن تطور القرد حتى صار إنساناً ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ؛ كل هذه افتراضات قالها من سمّاهم الحقُّ سبحانه : ﴿الْمُضِلِّينَ﴾ . ولو لم يقل الله تعالى هذه الآية ، ثم جاء قوم ليقولوا : الإنسان كان في الأصل قرداً ، لقلنا : إن القرآن لم يتعرض لذلك ، وكان من الممكن أن نصدقهم ، لكن الله سبحانه شاء لنا أن تكون لدينا المناعة ضد هذا الإضلال .

وعملية الخلق غيب عنا ، أخبرنا عنها من خلقنا سبحانه ، فلم يكن معه شاهدٌ رأى هذا المشهد ؛ ليقول لنا . والخلق الذى به الحياة ينقضه الموتُ ، ولكن الموت مشهد نشهده ، وأى نقض لشيء - كما عرفنا - إنما يأتى على عكس بنائه ، فإن بنينا عمارة من عشرين طابقاً ، وأردنا أن نهدمها لسبب أو لآخر ؛ فنحن نهدم الطابق العشرين أولاً ، ثم نوالى الهدم بعد ذلك ، فما بُنى أولاً يهدم أخيراً ؛ لأن نَقْض كل شيء يأتى على عكس بنائه .

وبما أن الموت نَقْضٌ للحياة ؛ فالروح إذا ما خرجت من الجسم ، وتُرِك الجثمان بلا دفن ، فالجثمان يتصلَّب ، ثم يصير جيفَةً [1] ، ثم يتبخر منه الماء ، ويتحلل الجسد إلى العناصر الأولى فى التراب ، هذه مراحل الموت .

وقد أخبرنا الحق عن كيفية الخلق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسان من التراب والماء فصار طيناً ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورة الإنسان ونفخ فيه الروح [2] ، وآخر مراحله فى الإيجاد هى الروح ؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة فى الموت .

---

(١) الجيفة : هى جثة الميت إذا أنتنت وكان لها رائحة . والجمع جيف وأجياف . (اللسان . مادة جيف) .

(٢) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة] .

والله سبحانه وتعالى فى هذه الآية جاء بوضع الإنسان على الجنب وقائماً وقاعداً ، ولم يأت بالمشى ؛ لأن الماشى عنده قدرة فلا ضرّ فى ذاته ، وإن أصابه ضرّ فمن غيره ، والضرّ مقابل النفع ، والنافع هو مَنْ يُبقى الشىء على صلاحه الممتع المريح ، فى الذات أو فى الخارج .

فساعة تكون ذاتك مستقيمة وملكاتها وأعضاؤها كلها سليمة ، فليس عندك ضرّ ، لكن إذا حدث خلل فى أى عضو من الأعضاء ؛ فالمتاعب تبدأ ، ولذلك يقال عن السلامة العامة : هى ألا تشعر بأن لك أعضاء ؛ لأنك حين تشعر أن لك عَيْناً - مثلاً - فاعرف أنها تؤلمك ، وإذا شعرت بأذنك فاعرف أنها تؤلمك . وأنت تطحن الطعام بضروسك وتأكل ولا تدرى بها . ويوم أن تدرى بها فهذا يعنى أن ألماً قد بدأ .

وهكذا لا يشعر الإنسان بفقد السلامة إلا إذا عرف وانتبه إلى أن له عضواً من أعضائه ، فيقول : «آه يا عينى» ، و«آه يا أذنى» .

ونقول : إن وجع العين مؤلم ألماً مخصوصاً ، وكذلك نقول : على أى عضو من الأعضاء ، أما من لا يشكو بأعضائه فهو لا يشعر بها ؛ لأنها تؤدى أعمالها على الوجه المناسب . والسلامة فيمن حولك تتمثل فى أن يحققوا لك المتعة والصفاء بدون كدر . وبذلك تظهر منفعتهم لك .[1]

وكل إنسان له كبرياء ذاتى ، يبيّنها قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

ولا يذل الإنسان إلا حين يعانى من آفة[2] ما ، ولا يأتى طغيانه إلا عند استكمال النعمة فى الخارج والنعمة فى الداخل ، وإن بدأت النعمة فى

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) وأخرجه البخارى فى صحيحه (١٠) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) آفة : عاهة ، أو مرض ، أو فساد ، أو نقص ، أو عيب . يقال : آفة الظَّرف الصَّلَف ، وآفة العلم النسيان .

الانقباض عن الإنسان ؛ فكبرياؤه تتطاير . ومن كان يستعرض قوته على الناس ، قد يرجو القيام من الرقود ؛ ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع .

والإنسان لا يستغنى إلا بما هو ذاتى فيه ؛ لا بما هو موهوب له ؛ لذلك فعليه ألا يغتر ؛ لأن الواهب الأعلى قد يقبض هبتَه ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحّاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه [1] قد خرجوا من جاههم .

إذن : فلا داعى للغرور ؛ لأن الله قد وهبك كل شىء ، وليس لك شىء ذاتىٌّ فيك أبداً ؛ لذلك يجب أن ينعدم الغرو ر ، فما دام كل ما فيك موهوبًا من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إن تُسلب من الإنسان نعمة فهو ينتبه . فلا داعى - إذن - لأن يغتر أحد ؛ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

والمثال : قد تكون عاديْتَ طبيباً ، وهو الوحيد فى المكان الذى تقطنه ، وقد يحاول البعض الإصلاح بينك وبين هذا الطبيب ، فتتأبَّى أنت ، ثم يأتى لك مرض ؛ فتلجأ إليه ؛ لأن الله قد وهبه القدر السليم من التشخيص بالعلم ، فلا يجب - إذن - أن تغتر أو تتعالى على أحد .

لكن الإنسان هو الإنسان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

والكافر ما إن يمسّه الضرّ ؛ حتى يقع فى بئر الهوان . أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ، وإذا مسّه الضرّ فهو يدعو الله تعالى دائماً ولا ينساه ؛ لذلك يتلطف به سبحانه ، عكس الكافر الذى يدعو الله ساعة الضرّ فقط . وأين

(١) الجاه : المنزلة والقدر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب] .

كان ذلك الكافر ساعة أن دعاه الله سبحانه بالرسل إلى الإيمان ؟

ونسيان الإنسان أمر وارد فى تكوينه الفطرى الأول [1] ؛ لأن الإنسان حين يعيش في محيط ما . فهو يحب النفع من خارجه ، وإذا امتنع عنه هذا النفع الخارجى ، فهو يأخذ النفع من ذاته ؛ من تحرُّك أبعاضه وخدمتها لبعضها البعض . ثم لا يجد له مفزعاً إلا أن يؤمن بمن خلقه أولاً . وانظر إلى التعبير القرآنى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

إذن : فمن يَعْبُد غيرَ الله - سبحانه وتعالى - يضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف ينقذ من يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه ، فهو الذى ينقذ الإنسان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً ، وهذا كلام منطقى ؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى فى عالم الذر [2] ؛ حينما

(١) ومن هذا قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] ، فجنس الإنسان فى تكوينه النسيان ، ولذلك تجاوز الشرع عن النسيان والخطأ وما استكره عليه الإنسان ، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١٩٨) . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى . وحسنه ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٤٢) طبعة مؤسسة الرسالة ١٩٩١م .

أما النسيان بمعنى التناسى والتغافل عن أوامر الله والالتزام بمنهج الله سبحانه فلا يتجاوز الله عنه بل يؤاخذ الإنسان به ، يقول عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] .

(٢) عالم الذر : هو يوم نثر الله ذرية آدم من ظهره ونشرها . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول ،[1] وقال لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

قلنا :

﴿ بَلَىٰ ... (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد ؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويوسِّط من يسأله أن يدعو له الله سبحانه.

وقد يدعو الإنسان من يواسيه لحظة المرض فلا يجد ولداً من أبنائه ، أو قريبا من أقربائه ، ولكنه فور أن يدعو الله تعالى ؛ تلمسه رحمته سبحانه ، وقد تجد إنساناً حين يستجيب الحق سبحانه لدعائه قد تركبه حماقة الغرور من جديد ، ويقول ما جاء به الحق على لسان قارون :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي[2] ... (٧٨) ﴾ [القصص]

ويقول : كنت محتاطاً وقد رتبت أموري . ثم يأخذه الحق سبحانه وتعالى أخْذَ عزيز مقتدر.

فإذا مسكم الضر ؛ فلن تجدوا من البيئات الخارجة عنكم ، ولا من ذوات نفوسكم ، ما يغنيكم عن خالقكم ، وفي لحظة الخطر لا تستطيعون

---

(١) العهد الأول هو إشهاد ذرية بني آدم وأخذ الميثاق عليهم بأن الله ربُّ الخلائق كلها ، وهنا كان الإيمان بالوحدانية فطرة يسكن بها القلب ، ويطمئن معها العقل وتستريح النفس ، أما العهد الثاني فهو التكليف على يد الرسل في افعل ولا تفعل ، وهو امتداد للعهد الأول ، ويجمع ذلك كله قوله : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] ومن هنا كان الأمر والنهي وعليهما مدار الحساب .

(٢) أي : أن قارون أنكر فضل الله عليه ، فيما أنعم عليه به من الأموال والكنوز التي قال الله عنها : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص] .

الكذب على أنفسكم ؛ فلا تسألون حينئذ أحداً إلا الله سبحانه ، وتتذكرون في تلك اللحظة عهد الذَّر الأول ، وتعودون إليه سبحانه .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾

وقوله الحق: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا (١) عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ يصوّر الضرّ وكأنه يغطي الإنسان ويلفّه ، فلا منقذ له أبداً ؛ لأن الكشف هو رفع لغطاء يغطي كل الإنسان . وهكذا يعطينا الله تعالى صورة لاستيعاب الضرّ للجسم كله ؛ حتى وإن كان بأداة من أدوات الإدراك مثل قوله سبحانه :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فكأن الجوع والخوف قد لفّ القرية كلها ، فلم تعُد البطون وحدها هي الجائعة ، بل كل ما في الأجسام جائع وخائف .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾

وكلمة ﴿مَرَّ﴾ تفيد أن هنا وقفة ، فحين يقال : إن فلاناً مرّ عليّ ؛ مقابلها : وقف عندي .

ونفهم من قوله الحق : إن هذا الذي مسّه الضرّ كان له وقفة عند الله سبحانه ؛ حين لفّه الضرّ ولم يجد معيناً له غير الله تعالى ، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ الخير من الله ولا يتذكر الإيمان به سبحانه ، وبعد أن يذهب عنه

(١) كشف الشيء يكشفه كشفاً : أظهره أو رفع عنه ما يستره في المحسوسات والمعاني . قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ .. (٥٤)﴾ [النحل] كأن الضر غطاء ثقيل فوق الرؤوس كشفه الله وأزاله ، ومن الحسي قوله تعالى : ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا .. (٤٤)﴾ [النمل] - أما قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ .. (٤٢)﴾ [القلم] فهو كناية عن شدة الخوف والرغبة في الفرار ، وقوله : ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ .. (٥٦)﴾ [الإسراء] أي : إزالته وهو كشف معنوي .. القاموس القويم : ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الضرّ وينسى الإيمان ؛ ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ وكأنه قد نسى تذلّله إلى الله ، فهو يمر من مرحلة الذلة والخضوع والدعاء إلى الله إلى مرحلة الاستكبار ، فلم يقف عند من أنقذه من ضره ، وهذه هى الصفاقة [1] .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهنا تأتى قضية ثانية ؛ فالحادثة حادثة خاصة وينقلها الحق سبحانه إلى عمومية تأتى فى الكون كله ؛ فالمسرفون قديماً حصل لهم هذا ، والذى زَيَّن لهم المرور إما أن يكون الشيطان ، وإما أن يكون الحمل من الحق على صفات موجودة فيه ، فالحق سبحانه هو القائل:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [2] ... ⑩﴾ [البقرة]

وقوله تعالى هنا:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ⑫﴾ [يونس]

وهذا ما حدث للمسرفين سابقاً ، وما سوف يحدث من المسرفين لاحقاً. والإنسان له عمل مكوَّن من القول والفعل ، والعمل هو كل حادثة متفرعة عن جوارح الإنسان ، وإن كان القول مقابله الفعل ؛ فالاثنان عمل .

وبعد أن يعرض الحق سبحانه هذه القضية فى عمومها ، وفى

---

(١) أصل مادة (صفق) التصفيق باليد ، والضرب الذى يُسْمع له صوت ، ومنه صَفَقَ الباب أى : فتح الباب ثم إغلاقه مع حدوث صوت . ومنه الصفقة للعهد والبيع والشراء ، ومن حديث رسول الله ﷺ : «إن من أكبر الكبائر أن تقاتل أهل صفقتك» . وهو أن يعطى الرجل عهدَه وميثاقه ثم يقاتله ؛ لأن المتعاهدين يضع أحدهما يده فى يد الآخر كما يفعل المتبايعان . (انظر : اللسان – مادة صفق) فالمادة من الممكن أن نخرج منها بمقصود فضيلة الشيخ من هذه الكلمة .

(٢) المراد بالمرض هنا : النفاق . وهو خلق ذميم يصيب صاحبه بأشد الأضرار ، ويضر المجتمع كله . ووصف النفاق بالمرض إذ إن المرض هو السقم وهو ضد الصحة . وتمريض الأمور : توهينها . وريح مريضة : ضعيفة الهبوب . وكل ما ضَعُفَ فقد مرض . والرأى المريض ، أى : فيه انحراف عن الصواب . قال تعالى : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ .. ⑤②﴾ [المائدة] [اللسان : مادة (مرض) .. بتصرف] .

خصوصها، وفى انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد ﷺ ، ويحذر الكافرين: أأسلمنا رسولاً إلى خصومه أم نصرنا كل رسول جاء على خصومه ؟ إن السوابق تدل على أن كُـلاًّ أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ[1] ﴿١٣﴾ ﴾

فإياكم أن تسوّل[2] لكم أنفسكم أن تظلوا على عداوتكم لمحمد ﷺ ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً ، وسيتم الله نوره ، فلستم بدعاً عن سابق الخلق .

و﴿ الْقُرُونَ ﴾[3] : جمع قرن ، والقرن من المقارنة ، وكل جماعة اقترنوا

---

(١) المراد بالمجرمين : الكافرون لأنهم كذبوا بآيات الله وظلموا واستكبروا . وجَرُمَ الإنسان: إذا عظم جُرْمه، أي: أذنب. قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] [اللسان : مادة (جرم)] .

(٢) تسوّل لهم أنفسهم شيئاً : تُزيِّن لهم الخطأ . والتسويل: تحسين الباطل وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله. قال تعالى: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] ، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد] . [اللسان: مادة (سول)] .

(٣) القَرْن: الأمة تأتي بعد الأمة. والقرن: أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم. يقال: القرن من الزمان مائة سنة ، وقيل غير ذلك، والجمع: القرون. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام] . وقال ﷺ : «خيركم قرنى (يعنى : أصحابى) ثم الذين يلونهم» ، يعنى: الذين أخذوا عن التابعين .